

المحاضرة السادسة

المشكلات الإستمولوجية الخاصة

1- مشكلات علم النفس:

- التيارات الكبرى المؤسسة لعلم النفس:

مصطلح سيكولوجيا يعني إستمولوجيا علم الروح، ظهر في القرن 16، واعتبارا لعلاقته التاريخية الوطيدة بالفلسفة، فقد كان علم النفس يعني علم الحياة الذهنية (العقلية)، ظواهرها وشروطها.

ابتداء من القرن 19 وفي ألمانيا بالضبط، عرف علم النفس تطورا منهجيا بفضل الأطباء والفيزيائيين. يُعد غوستاف فيخنر (1801-1887) Gustav Fechner أول العلماء النفس الألمان، كان سببا في ظهور علم النفس المخبري، وذلك بإدخال عناصر القياس (منهج قياس الإحساس) في علم النفس على أساس العلاقة الرياضية بين الإثارة (المنبه، والتحفيز) والإحساس، محاولا اكتشاف القوانين التي تتحكم في العلاقة والتأثير المتبادل بين المعطيات الفيزيائية والنفسية.

وفي السنوات التي تلت هذا الإنجاز، قدّم العالم الألماني فونت (1832-1920) Wilhelm Wundt كتابه: عناصر علم النفس الفيزيائية *Élément de psychologie physiologique* 1874 ويؤسس أول مخبر علم النفس سنة 1878 بمدينة لايبزيغ Leibzig في ألمانيا، محاولا بذلك تحليل ظواهر الوعي، لكي يعزل العناصر البسيطة مثل: الإحساسات، والأحاسيس، والصور.

من أشهر علماء النفس الأوائل وليام جيمس (1842-1910)، وتلميذه غرانفيل هال (1844-1844) Granville S.Hall (1942)، والذي أسس مجلة *American Journal Psychology*، مع العالم الإنجليزي جامس كاتل James M.Cattel (1860-1944).

إلا انه من ريبو إلى فونت مرورا بوليام جيمس، كانت فترة المخابر النفسية-الفيزيائية، وفترة تجريب، لكن نتائج البحوث في مجال علم النفس تبقى محصورة في موضوع فيزيولوجيا الإحساس، ولا يتحدث علم النفس القرن 19 لا عن السلوك، ولا عن التصرفات، ولا على العقل. يعد استخدام الطريقة التجريبية عاملاً لا جدال فيه في تقدم المعرفة في علم النفس، ولكنه يطرح سلسلة من المشكلات.

ذلك لأن هذه الطريقة (التجريبية) تقتضي موضوع الحقائق البشرية فقط التي يمكن إخضاعها للتجريب في المختبر تحت السيطرة. لذلك فإن فئة كبيرة من الحقائق البشرية تفلت من هذا الاحتمال، كالحيال في الحياة اليومية، والعلاقات الشخصية، والصراعات، والعواطف، والدوافع في مواقف ما، كلها لا تصلح للتجريب عليها.

بالإضافة إلى ذلك، تتضمن الطريقة التجريبية عزل الحقائق البشرية وتقسيمها إلى عوامل أولية دقيقة ودقيقة بشكل متزايد. ومع ذلك، فإن ردود أفعال الكائن الحي غالبًا ما تكون عامة، مثلما لاحظ ذلك كلود برنار، وعليه فإنه من الآن فصاعدًا، يخضع علم النفس التجريبي لقانون أخلاقي يحظر إجراء تجارب مثل تلك التي أجريت في عصره.

في نهاية القرن 19 أصبح علم النفس، في كل الدول المصنعة، نشاطًا مستقلًا قائمًا بذاته، يطمح إلى الارتقاء، إلا أنه لم يتطور بنفس النموذج في مختلف البلدان، مثلًا في فرنسا، يختلف علم النفس التجريبي عن علم الأمراض العقلية. كما أن التنويم المغناطيسي L'hypnose لشاركو (1825-1893) Jean Martin Charcot اعتبر بمثابة منهج تجريبي في علم النفس الذي يبني الأرضية العلمية لعلم النفس. كما عيّّن ريبو (1839-1916) Théodule Ribot في منصب أستاذ كرسي في علم النفس في المعهد الفرنسي، وقد ساهم في تكوين الكثير من الطلبة الذين شاع صيتهم في أوساط علماء النفس، أمثال: بيار جاني، جورج دوما وغيرهم، كما شجع على انشاء أول مخبر علم النفس تجريبي فرنسي في السربون.

يعرف علم النفس اليوم تنوعًا في التوجهات المؤسسة على تنوع تياراته ومدارسه.

المدارس الأولى في علم النفس التي اقترحت مقاربات مختلفة في دراسة السلوك (التصرفات):

- علم النفس البنوي Psychologie structurelle: حول معرفة عناصر الوعي (الشعور)، وتحديد وضعية بنية السلوك وذلك بواسطة الاستبطان أو الملاحظة الذاتية للوعي.

- علم النفس الوظيفي Psychologie fonctionnelle: البحث في العمليات الذهنية من جهة ما هي وسائل لغايات معينة، أي وسائل للتكيف الفرد مع محيطه الخاص.

وكان لا بد من الانتظار حتى القرن التاسع عشر، أي استقلال علم النفس عن الفلسفة والميتافيزيقي، تيارات ومدارس علم النفس الحديث:

عرف القرن 20 سيادة الرأسمالية في أمريكا، والإشترابية في روسيا، وطغيان التيار الوضعي المتطرف، كل هذا شجع على ظهور المدرسة السلوكية (علم النفس السلوكي) Le béhaviorisme، والتحليل النفسي

La psychanalyse، ونظرية الصورة أو الشكل Gestalt-theorie أو الغشتالتية، وقد هيئت هذه المدارس لذلك التطور الملحوظ الذي سيؤول إليه علم النفس.

– السلوكية: هو اسم مشتق من السلوك، ويطلق على النظرية التي وضعها واطسن الأمريكي John Broadus Watson (1878-1958)، في مقال، في مجلة علم النفس سنة 1913 تحت عنوان *Psychology as the behaviorist views it* والذي أحدث ثورة في مجال علم النفس. يرى هذا العالم بأن السلوك هو الموضوع الوحيد القابل للملاحظة، والذي يمثل موضوع دراسة علمية، لذلك ينبغي على علم النفس أن يتطور على أساس دراسة السلوك وهو العنصر الوحيد الذي يمكن ملاحظته ملاحظة موضوعية.

– التحليل النفسي: مؤسس هذه المدرسة سغمووند فرويد Sigmund Freud (1856-1939) وهو طريقة علاجية تُستخدم في علاج الأمراض النفسية، وذلك بدراسة العقل الباطن والسمات النفسية التي تُشكّله، وتقوم على آلية التداعي الحرّ والتحويل كطريقة في عملية العلاج. قد اعتبر بمثابة علم نفس حركي، يسعى على اكتشاف مناطق في الشخصية العميقة، والظواهر اللاشعورية بواسطة مناهج خاصة (التنويم المغنطيسي، والتداعي الحر، تفسير الأحلام...)

– علم النفس الصور أو الشكل: في العشرينات تحت تأثير أعمال كوفكا Kurt Koffka (1886-1941) وكوهلر Wolfgang Köhler (1887-1967) و ماكس فيرتمير Max Wertheimer (1880-1943) الذين طوروا علم النفس الصورة أو "الغشتالت"، والتي تعتبر الصورة فيه مرجعا أساسيا في عملية الإدراك. إلى جانب ذلك هنا كثير من الفروع، كعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس المرضي، وعلم النفس المعرفي، والبيولوجي، وعلم النفس التطوري La psychologie évolutionniste وهذا الأخير جزء من علم النفس المعرفي، وجد أصوله في الدراسات الأولى حول الذكاء ونظريات التطور عند دارون Darwin، ويهتم بتطور الفكري والعقلي، والعاطفي للشخصية¹.

– مشكلة المنهج:

بناء على ما سبق، يمكن القول بأن لعلم النفس طريقة ومنهج خاص في التعامل مع الظواهر النفسية المعقدة، وعلى هذا الأساس يمكن الحديث عن ثلاثة مناهج أساسية كبرى، تترع بدورها إلى شعب، وهي كالتالي:

¹ Jean François dortier (sous la direction), Le Dictionnaire des sciences humaines, Paris, Edition sciences Humaines, 2008.

- علم النفس التجريبي: سبق الحديث عنه. هو عبارة عن علم نفس مخبري، يهتم بشكل متزايد بالتجارب في الوسط الطبيعي، السليم، وهذه التجارب من المرجح أن نخبرنا المزيد حول الظواهر المعقدة والقريبة من مظاهر الحياة اليومية (علم النفس الاجتماعي، بيئة العمل، علم النفس التربوي وغيرها).

- الطريقة التفاضلية أو المقارنة: تهتم بدراسة المعطى النفسي انطلاقاً من الفوارق بين الأفراد، لذلك فهي تهتم بالمتغيرات والفوارق النفسية، ودرجة ارتباطها وظروفها، من هذه الظواهر: الوراثة، البيئة، التربية، الحالات النفسية الجنسية، الأجناس، الحضارات، نماذج وأنواع اجتماعية، القدرات والشخصيات الفردية.

- الطريقة السريرية (العيادية): يهدف هذا المنهج إلى الإحاطة بالموضوع الخاص (الفردية)، باستعمال الوسائل المستنبطة تارة من علم النفس التفاضلي (كالاختبارات الذهنية)، وتارة أخرى، يهدف إلى استكشاف الشخصية من (سوابق، استبيانات، اختبارات اسقاطية، مقابلات)، وأحياناً أخرى يستنبط من (علم النفس الاجتماعي من خلال (لعب الأدوار، ديناميك المجموعات).

إن كثرة المناهج هو دليل على تعقيد الظاهرة النفسية، لذلك كان في اعتقاد المدارس الأولى، أن أحسن طريقة لبلوغ حقيقة النفس وحالاتها هي طريقة الاستبطانية (الاستبطان) L'introspection نوع من التأمل الذاتي، أو نظر الشخص إلى ذاته، أو الملاحظة الذاتية. ويصبح الملاحظ هو نفسه الملاحظ. وبهذه الكيفية تعرّض هذا المنهج وهذا النوع من علم النفس إلى انتقادات لاذعة، خاصة تلك التي قدّمها أوغست كونت Auguste Comte (1857-1798). فقد اعتبر علم النفس وعلى الأخص علم النفس الاستبطاني في كتابه دروس في الفلسفة الوضعية ، علم وهمي، وهو عبارة عن الصورة الأخيرة التي اتخذها اللاهوت الذي يسعى اليوم بعضهم، بلا طائل، إلى إحيائه. والأكثر من ذلك أن هذا المنهج يعتمد على ملاحظة الذات لنفسها، وهو أمر مستحيل لأن الفرد المفكر لا ينشطر إلى قسمين: أحدهما يفكر، والآخر ينظر إليه وهو يفكر².

- مثال آخر عن منهج علم النفس الاجتماعي (السوسيولوجي) :

أولاً هو علم أكثر تجريداً من باقي العلوم الإنسانية، وهو ثانياً، علم تقني تطبيقي أساسه التجريب لأنه يرتبط بالحياة اليومية العينية، في مشاكلها، فهو بالنسبة للبعض مُختبر العلوم الإنسانية الأخرى. من جهة أخرى، يكون التوجه الحالي لهذا العلم (علم النفس الاجتماعي)، هو دراسة العلاقات الاجتماعية Relations sociales التي تبنى بين الأنا كفرد أو كجماعة والآخر أو الغير كذلك كفرد أو كجماعة، الغاية منها، تحليل علاقتها بالوسط Le milieu اجتماعي كان أو غير اجتماعي، ونجاح هذه الدراسة متوقف على مدى فهم الدارس لهذه العلاقة

2 August Comte, Cours de philosophie positive, premiere leçon, Edition numérique, 1830.

وآثارها، وهو أمر في غاية الصعوبة على درجة الاستحالة. من هنا يمكن استنتاج أهم العوائق الاستمولوجية، بلغة باشلار، التي تقف في وجه تطور هذا النوع من الدراسات:

- قصور في التصور النظري لموضوع علم النفس الاجتماعي. إن تعقيد الظاهرة المدروسة، يشكل عائقا في وجه معرفتها وتصورها خاصة إذا علمنا أن موضوع دراسة علم النفس الاجتماعي هو نفسه موضوع دراسة علم الاجتماع، ومنه يختلط الأمر على الدارس بين مختلف التوجهات والاتجاهات دون الوقوف على ما يميز الظاهرة السايكو-سوسولوجية عن غيرها من الظواهر. وبهذا لا يملك علم النفس الاجتماعي موضوعا خاصا به.

- قصور على مستوى المنهج، بحيث ليس هنا منهج وطريقة واضحة يتعامل بها الدارس مع الظاهرة المدروسة، ذلك لأن علم النفس الاجتماعي يقف بين علم النفس كفرع يقوم على المنهج التجريبي، وبين علم الاجتماع يقوم على منهج الاستقصاء.

- قصور على مستوى تعميم النتائج³.

بالرغم من الحقائق التي كشفت عليها هذه المناهج في بحثها، إلا أن كثير من الظواهر النفسية المعقدة فعلا، تبقى محل الدراسة لتعذر التحريب فيها، أو عزلها عن محيطها، أو حتى فهمها، ناهيك عن التنبؤ بحدوثها، والأخطر طابعها الذاتي.

3ع. بنعبد العالي، م. وقيدي وآخرون، إشكالية المنهج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، ط2، دار توبقال للنشر، المغرب، 200176.

مراجع المحاضرة:

- Jean François dortier (sous la direction), Le Dictionnaire des sciences humaines, Paris, Edition sciences Humaines, 2008.

- August Comte, Cours de philosophie positive, premiere leçon, Edition numérique, 1830.

- ع.بنعبد العالي، م.وقيدي وآخرون، إشكالية المنهج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، ط2، دار توبقال للنشر، المغرب، 2001.